

الدارس في تاريخ المدارس

من العريش إلى حمص والكرك وكان يركب وحده مرارا عديدة ثم يتبعه غلمانا يتطاردون خلفه وكان مكرما لأصحابه كأنه واحد منهم ويصلي الجمعة في تربة عمه الصالح السلطان صلاح الدين الدين رحمه الله تعالى ويمشي منه إلى تربة أبيه وكان إخوته وملوك الأرض والأطراف يعظمونه قال الملك الظاهر صاحب حلب عنه هو والله واسطة العقد وعين القلادة وكان الملك الكامل يقول وهل انبت الشعر على رؤسنا إلا الملك المعظم قال ابن الأثير كان عالما بعدة علوم فاضلا فيها ومنها الفقه ومنها علم النحو وكذلك اللغة نفق سوق العلم في زمنه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأعطاهم إلى أن قال ولم يسمع أحد منهم ممن صحبه كلمة نزقة وكان يقول كثيرا كاعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي وكان يقول في مرضه لي عندما في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به وقال ابن واصل كان جند الملك المعظم ثلاثة آلاف فارس لم يكن عند إخوته جند مثلهم في فرط تجملهم وحسن زيهم وكان بهذا العسكر القليل يقاوم إخوتهن وكان الكامل يخافه لما يتوهمه من ميل عسكر مصر إليه لما يعلمونه من أمر اعتناؤه بأمر أجناده وكان المعظم يخطب لأخيه الكامل في بلاده ويضرب السكة باسمه ولا يذكر اسمه مع الكامل وكان مع شهامته وعظم هيئته قليل التكليف جدا لا يركب في الصناجق السلطانية في غالب أوقاته بل في جمع قليل ولقد رأيت بالقدس الشريف في سنة ثلاث وعشرين الرجال والنساء يزاحمون فلا يردهم فلما كثر هذا منه ضرب به المثل فيمن يفعل فعلا لا تكلف فيه قيل فعله كاملعظم توفي رحمه الله في سلخ ذي القعدة وأوصى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن في القلعة ويخرج إلى الميدان ويصلي عليه الناس ويحمل إلى قاسيون فيدفن على باب تربة والدته فلم تنفذ وصيته ودفن في القلعة ثم أخرجه الملك الأشرف لما ملك دمشق ودفن مع والدته في القبة وفيها أخوه المغيث وجرى على الرعية ما لا يجر عليهم عند موت أحد من الملوك انتهى وقال الأسدي أيضا في سنة إحدى عشرة وستمائة وفيها حج المعظم فسار على الهجن في حادي عشر ذي القعدة ومعه عز الدين أيبك صاحب صرخد